باحثة البادية

(٤)

المصرية

المصرية من باحثة البادية مصريتان : مصرية ظرفها ومصرية بوطنيتها

من لا يعجب بالظرف المصري الذي يبدو ادباً وحسن مجاملة في المعاملات، ويتناقله المتحادثون نكاتاً تمرُّ في الحديث فتجعله ذا لذعة لطيفة تشرح القلب وتبهج الخاطر ؟ إنَّ لكلٍّ من الشعوب صفة كهذه التي يسميها الفرنساويون (esprit) والانجليز امريكيين (humour) ، وهو رسم جولة الفكر منهم مع ما تضمنهُ من شرائق يرى يغضب ليسترضي وهو يقابل ، الاحاديث والمناقشات فيحميها من الملل الذي يتهدَّد جميع العلائق البشرية إذا استمرَّت على وتيرة واحدة

تتكوَّن الشخصيةُ الجاذبةُ من عنصرين اثنين : اولهما ثابتٌ لا يتغيَّر وهو الطبع ، والآخر يتوفر متمثلاً وهو الظرف . ولئن كانت قيمةُ المرء الاخلاقية وكرامتهُ وعظمتهُ في العنصر الاول وهو القوة الاصلية الجاذبة ، فان الظرف (اذا كان طبعياً لا تكلُّف فيه) يفقدُ الانتباه من تعب التوتُّر اذ يمزج الطبع الجدي العبوس بشيء خفيف رشيق وثاب يرضي دائماً اذا كان خاضعاً للذوق المصفَّى

وجميع الاقطار العربية تعترفُ للمصريين بالمقام الاول في عالم الظرف (كما في آفاق معنوية اخرى) ، ويساعدهم على التفرُّد به لفظهم ولهجتهم ودقتهم اللاذعة . وقلَّ من من الاوربيين يفهمُ ذلك لأن فكرهم على توقُّده وانتباهه لا يستطيعُ الوصول الى الدقة الشرقية الخفية . ايكفي التوقد والانتباه لكي يطلب التفهم ؟ أليس هناك صفة اخرى تصيب جوهر المعاني والاغراض بوثبة واحدة، وهي الحدس الذي كان وسيظل دائماً قوة النفس الشرقية ؟ وهذه الدقة المتوارية ازاء النظر الغريب أليست هي البادية في السلم الموسيقي بعوارض كثيرة انتجزئة

غريبة الاوضاع ؟ تلك العوارض اخذ بعضها نفرٌ من كبار الموسيقيين في الغرب ونظمها بياناً فنياً جميلاً . على ان الجمهور الاجنبي ما زال يحسبها خطأً وخللاً موسيقيًّا في حالتها الشرقية الصرفة ، مع انها هي الجاعلة لموسيقانا سذاجتها وفعلها الاليم المستحب

اللسان المصري سلطان يعنو لهُ الكلام . والمصري سرعة خاطر مدهشة لا تكلّ ولا تنضب والفاظ كالسلسبيل حلاوة . ولكنّ هذه الميزة تظهر على أتم ما تكون عند المصري الراقي الذي يرفع المعاني المتداولة الى اوج فكره ثم يظهرها جديدة الاانس واللاسة تتبعثر فيها الملح الحسناء ورؤوس حراب صغيرة تهدّد بالوخز كثيراً ولا تفعل الاّ نادراً

***

كل ذلك في باحثة البادية محدّثةً وكاتبةً . خفةُ الروح ترفرف على جميع سطورها الاّ انها تستوقفك الوقت بعد الوقت بنكتة غير منتظرة وتمكّن شائق يناسب الموضوع . كقولها في انتقاد الشراسة العابسة التي يستعملها بعض الشرقيين في منازلهم :

« زرت مرةً سيدةً من ابناء بعض هذا الزوج القاسي وكنا نتكلم واولادها الصغار يلعبون قريباً منا وبناتها الشابات يضحكن واذا بين سكتن فجأةً وارتبكت ابنتي وغارت احيانها وعلاهن الاصفرار وقامت احداهن تهرول الى الصغار لتسكتهم والثانية تتسمع على السلم والاخرى ترى ماذا يمكنها ترتيبه في حجرة والدها فعجبت من هذه الحركة الفجائية وسألت عن الباعث لها فخبرتني السيدة والحزن بادٍ عليها وتكاد لا تنطق الا همساً « ان البك ربما يكون قد حضر » . فقلت في نفسي اذا كان كل هذا الاضطراب وفي حضوره شك فماذا يفعل هؤلاء النسوة اذا قيل لهن « انه قد والله حضر » ؟

ظرفها يبدو في الغالب تهكماً بريئاً لا مرارة فيهِ ترطبهُ البسمةُ التي لا تبعدُ عنهُ كثيراً ، ويعجبها أن تستعملهُ لايضاح أغلاط الرجل . ولو كنتُ رجلاً لجزلتُ لشراستي المزعومة وصاغتها احياناً لتوحي الى الباحثة مثل هذه النكتة المليحة :

« فما أقدر زوج الفرنجيات على الثناء ! ولو أنصفوا لعينوا زوج كل اثنتين سياسياً او ناظراً للمستعمرات ! (ولكن الذي يؤسف له انا ليس لنا مستعمرات)

وهذه غيرها :

« يقول لنا الرجال ويجزمون انكن خلقتن لتبيت ونحن خلقنا لجلب المعاش . فليت شعري أي فرمان صدر بذلك من عند الله ؟ » . انهم لو انصفوا ولم يتحيزوا لما عيرونا بانا قليلات النبوغ وانه لم يسمع بان احدانا غيرت قاعدة في الحساب والهندسة مثلاً . وليتفضل احدهم باخبارنا عما استنبطه من تلك القواعد . فنحن نعترف لرجال الاختراع والاكتشاف بعظيم اعمالهم ولكني لو كنت ركبت المركب مع خريستوف كلومب لما تعذر عليّ انا ايضاً ان اكتشف اميركا »

ودونك هذا الوصف الحي في غاية الحياة لانهُ ينطبقُ على بعض مشاهدات واقعية . ولكنهُ يتناولُ المرأة هذه المرة :

« تسافر المرأة الافرنجية الآن او البدوية وحدها فتركب القطار او الجمل وسرعان ما تحمل متاعها او تحضر من يحمله لها بلا ضوضاء . اما المصرية فلا تسافر الى محطة قريبة الا ومعها من الخدم والاقارب من تعطلت اعمالهم من اجلها ثم تجدها لا تكاد تحرك رجلاً لتنزل حتى يتحرك القطار واذا ساعدها الله (والاولياء !!) ونزلت فما اكثر ما تفقده ولا تجده . ضاعت حقيبة المصوغات وانكسرت القفة فبلغت حيرتها واشتبك رقمها بمفتاح المربة فانقطع خيطه واذا لم يسرع حشمها في التقاط اطفالها فقد يقع احدهم تحت العجلات سريعاً »

صدقت الباحثة . ان طائفةً من النساء الشرقيات لم تتهذَّب منهنَّ الحركة فاذا مشين شعر الرائي بانهن منتبهات لحركاتهن مرتبكات فيها ، وربما مرن على غير هدًى فيصطدمن بما حولهن من اثاث وجدران ويقلبن مرغمات ما على الطاولات من اناء وزهرية وكتاب . قد يكون هذا راجعاً الى دور الانتقال الذي نحن فيه من القديم المنبوذ الى الجديد المحبوب ، ودور الانتقال يظلُّ دائماً أليف الحيرة والخبط والتردُّد الى ان يقوِّمهُ المران وتألفهُ العادة . ولكنَّ من الشرقيات عموماً والمسلمات خصوصاً من هنَّ موزونات الحركة موزونات الكلمة بُعدَ ما يقضى معهنَّ من الاوقات لحظات الس وهناء

ينتشرُ ظرفُ الباحثة غالباً في سطورها كما رأينا في النبذ السابقة ولكنهُ يجمع احياناً في كلمة واحدة او جملة مختصرة كقولها في نقد الحبرة العصرية

« ان نصف ازارنا السفلي مرط (جونيله) لا يتفق مع كمة حجاب ولا مع مقناها ولا مع الحكمة منه . وما نصفه العلوي غير كالصركما تتقدم قصر . أما البرقع فاشف من ثقب الطفل »

كذلك تظلُّ يدها سائرة على هواها والكتابة جزء من معانيها . وقد تدري بها فتضحك لها بعد رسمها على القرطاس وقد لا تلتفت اليها مطلقاً . فتبقى في إعراضها والظرف يتسرَّبُ بين مقطوعات الخطاب حتى يجيء الانفعال الشديد يهزُّها

فتتطاير اذ ذاك من حول صحيفتها امراب المنح والنكات والتهكم ويتفرّغ اليراع لعرب المذوقات العاطفة المختلفة والشعور المكابد المعاني

***

اما المصرية الوطنية فصرخة دائماً وان لم ترفع القناع الا الوقت بعد الوقت. وربما تكلمت الوطنية احياناً باسم الاسلام وتارة باسم الشرق بأسره كقولها:

« انه لو سلمنا بما يقترحه الكتاب من ضرورة تقليد الغربيين في امور معاشنا ولباسنا وزي بلادنا مما قد لا يوافق روح الشرق فاننا نندمج فيهم ونفقد قوميتنا بمرور الزمن وهذا هو ناموس الكون اذ يفنى الضعيف في القوي وانه لمن العار أن نهمل هذا الامر يجري مجراه. فادعو الكتاب والباحثين لتفكير فيه وفي ايجاد مدنية خاصة بالشرق تلائم غرائزه وطبائع بلاده ولا تعوقنا عن اجتناء ثمار التمدن الحديث »

رأيٌ في منتهى التعقل والاعتدال واخاله يتفق غرضاً مع الجمعية النسائية التي تألفت في هذه الايام لمقاومة تيار المدنية الاوربية في هذا القطر. انا الشرقية الشغوف بكل ما هو شرقي أحمي لكل من اقطارنا طابعاً شرقياً صرفاً. لكن حسن ان يبسط المرء مدى فكره الى ما وراء حدود ما يتمنى لان جدران « التمني » ضيقة في الغالب. اذا مال الانسان الى امر ووجد من نفسه دافعاً يحمله على طلب ذلك الامر بقوة كان بذلك طلبياً نداء سرياً منبثقاً من اعماق مزاجه. وكأن خفايا المزاج تعلم ان في الامر المطلوب ما يكمل منه قوى لم يبرز الا بعضها، او ان في ذلك الامر اقتداراً لتنبيه قوى جديدة مجهولة في اعماقه. اذ ذاك ماذا تنفع الارادة وهل هو يستفيد منها حقيقة ولو تظاهر بالاصغاء والطاعة؟ ولو كان من قوة الارادة بحيث يتيسر له إكراه نفسه على التحول عن ذلك الانجذاب فهل في ذلك خيره ام كان خاسراً واحداً من الظروف النادرة التي تهيئها الحياة للمرء مجالاً لتوسيع قواه وتمكناته وانماء ملكاته؟ تُرى هل فقدت قوة اليابان منذ احتضنت المدنية الاوربية واستخدمت مظاهرها ام تحسب اليابان من الراجعين؟

أما ساعة تتكلم الباحثة بلسان المرأة فهي تحذف اسم الشرق والاقطار الاسلامية ولا تهتم الا بالمرأة المصرية دون غيرها كقولها:

« ان من يتصفح تاريخ المرأة المصرية الحديثة يرى انها كانت دائماً مظلومة مهضومة الحقوق. في عصر اسماعيل هجم علينا جيش من التركسيات انهزمنا امامه وخرج ظافراً منا باحسن رجالنا

فلم يكن شريف ولا نابه بمصر الا وام ولده جارية تركية من شراء اسماعيل . ثم ابتدأ رجالها بعد ذلك الزمن يتزوجون بالاوربيات » . « اما وقد صار الآن بمصر من المتعلمات من يصلحن لزواج ابناء جلدتهن أفليس من العار ان تقدر على ان تجعل ابناك شريفاً من أم ذات حسب فتختار ان يكون ابن جارية تركية أو راقصة اوربية ؟ » . « ألا ربّ معترض يقول ان قد بطل الرق الآن وان من يصاهر الترك يصاهر اكفاء . هذا صحيح ولكن الام تغذي الطفل بأميالها وطباعها كما تغذيه بلبنها فاذا ما حنت الى الزكية لوطنها (وكل يحن بالطبع لوطنه) نشأ متشبعاً باميالها يحب تركيا ويميل الى مصر وهو ممدود من رجالها » . « وسبب فشل المصريين وعدم ميلهم الفطري للاتحاد هو على ما أرى ناشيء عن تشعب اجناس امهاتهم . فابن الفرنساوية يحب فرنسا وابن الزنجية يذكر حسب السودان وابن العربية يفتخر بمحتده وولد المغربية لا ينتأ يذكر بلده وهكذا اضعنا وطنيتنا المصرية عن طريق المصاهرة بالاجانب » . « ثم اجدني محقة اذا قلت ان الدم يحن الى نوعه فاذا تكافأ الزوج والمرأة في العلم والتربية وكانا مصريين مثلاً فان الحب بينهما يكون أصدق وأمتن منه لو كانا مختلفي الجنس »

عندي اعتراض صغير على كلمتي « أصدق وامتن » . ان للحب السامي الاكيد درجة واحدة من المتانة والصدق وتلك الدرجة كعبة تدركها قلوب المخلصين قبل ان يفطنوا لها ، بل ان الاخلاص المجرد من انتباه الشخص المخلص لوقوع اخلاصه كان دائماً من الصفات الوداية الاولية . ثم ان الحب هو العالم الانور والافق الاطهر الذي تتلاشى عنده كل جنسية وكل تحزب ولا يخطو بابه الا المخلصون . كلا لا يكون الحب « أصدق وأمتن » بين مصري ومصرية منه بين مصري وفرنساوية او انجليزي وزنجية الا اذا ارادت باحثة البادية ان ابناء الوطن الواحد والطبقة الواحدة يكون لهم في الغالب اذواق متشابهة متقاربة فلا يولد الاحتكاك فيما بينهم نفوراً . وهي نظرية اصادق عليها نصف مصادقة فقط لان اخوة الجنسية والطبقة لا تعني اخوة النزعات . كم وكم من الناس رأوا انفسهم منعكسين في مرآة نفوس الغرباء المختلفين عنهم جنسية وعقيدة واطماعاً ومصالح فكانوا معهم متفاهمين متفقين لانهم وجدوا ان بينهم وبين هؤلاء الغرباء علاقات معنوية وقرابة روحية لم تربطهم مثلها بذويهم واخوانهم واقرب الناس اليهم ! ذلك لان للنفوس والميول وطناً غير وطن الجسد . على ان هذا لا ينفي ان ابناء الوطن الواحد اقرب الى الاتفاق فيما بينهم ازاء المصلحة الوطنية

باحثة البادية تحب كل ما هو مصري . ما الطف هذه الكلمة في وصف اللون المصري :

« وما احلى السمرة الجاذبة لو فهمن معناها . سمراء جميلة لانها جميلة ولانها مصرية ولو لم تكن فيها غير المصرية والطبيعة لكفى »

وكم من رجل وامرأة في مصر يستحقان هذا التعنيف :

« اننا في مصر ولكننا لا نعرفها . أرأيت اغرب من مبصر اعمى ؟ ان الاهرام على قيد ذلة الميل من القاهرة ولكن كثيرات منا لم يزرنها والآثار تخبرنا عنها الساعات الاجنبيات فنبدي جهلاً مزرياً وتعجب مما يقصصن علينا وتاريخنا مبعثر في الارض من قديم وحديث ولا من تلم به حباً من غير الكتب الجامدة الخالية من الروح »

على ان وطنيتها اجلى وضوحاً واتم بياناً عند ما تعالج الموضوع الذي يكثر عودها اليه وهو ان لا يأخذ ابناء هذا الوادي من مدنية الغرب الا ما لا بد من اخذه على شرط ان يصطبغ بالصبغة المصرية ويتسم بالطابع الوطني ، كقولها :

« فتياتي شبانا لتلقي العلوم الحديثة في اوربا يجب ان يكون لخير البلاد لا لشرها . فكما يتعلمون لنفع انفسهم يجب ان يقترنوا ذلك النفع بنفع مواطنيهم ايضاً . فواجبهم الوطني يقضي عليهم بان يدخلوا كل ما يرونه صالحاً في بلادهم مع الاستغناء عن الاجنبي على قدر الامكان . فصانع الحرير الوطني اذا رأى معامل اوربا وسرضها وجب ان يشتري لبلاده الآلات اللازمة لسرعة انجاز العمل لا ان يدخل تلك الصناعة بعينها ويقضي على صناعته الجميلة فيكون قد اقتبس شكلاً وأبطل آخر . فنحن اذا ابتعنا كل شيء قضينا على مدنيتنا . والامة التي لا مدنية لها ضعيفة هالكة لا محالة » .

« اذا اردنا ان نكون امة بالمعنى الصحيح تحتم علينا ان لا نقتبس من المدنية الاوربية الا الضروري النافع بعد تمصيره حتى يكون ملائماً لعاداتنا وطبيعة بلادنا . نقتبس منها العلم والنشاط والثبات وحب العمل . نقتبس منها اساليب التعليم والتربية وما يوقينا حتى نبذل من ضعفنا قوة . واما لا يجوز في عرف الشرف والاستقلال ان نتدمج في الغرب فنقضي على ما بقي لنا من القوة الضعيفة امام قوته المكتسبة الطائلة »

ما أجمل هذه العبارات معنىً ومبنىً وما أوفاها حصافة وحكمة ! انها لتستفز الحماسة وتدعو الى التصفيق وها أنا أصفق لها بقلبي وراحتي

***

ليس بين المعاني الاجتماعية ما هو ادعى الى التحمس والطرب من اسم الوطن لان الوطن كل شيء . فهو الاهل والاحباب والدموع والابتسامات ، وهو القبور الغاليات ومهد الذراري المقبلات . هو مجموع الوراثات الادبية والتاريخية والاخلاقية والعلمية والعملية كما أنه الفجر واجراق بدائعه الذهبية والغروب بسرادقه المهيب المنصوب فوق جيوش السحب المتلمعة

هو العلم الذي ترتمش لتلاعب النسيم باهدابه ذرات القلوب

نحن الذين أحببنا من مصر جمالها الطبيعي وجلالها التاريخي وعظمتها الاثرية وعذوبة بنيها وبناتها ، نحن الذين أحببنا من مصر كل شيء نعم ان مصر الحقيقية ، مصر العميقة كانت تلك الثائرة عالية الجبهة وراء أعلامها المنشورة . مصر هي تلك الشيبة الطامحة الى الارتقاء وتلك الامة التي لها من فطنتها ما يذكرها ان طريق التقدم ليست التخريب والتشويش والتدمير بل الهدوء والعمل والكرامة والتفكير . مصر هي المرأة المصرية التي أرتنا في هذه الايام ان فيها ما كنا نتساءل لها وهو ينتظر ان تنبهه يد الاحوال ليبدو مسطوراً . ما كان ألطف السمات النسائية اياد المظاهرات وراء النقاب الابيض ! وما كان ابهج الاعلام المصرية المثلثة الاهلة الموحدة الصليب تلوّحها الايدي النحيفة ! وما أحبّ الاصوات الشجية الخافتة تنشد أناشيد العزّ وتهتف هتاف الحماسة !

لترقد الباحثة بأمان وسلام ان لاخواتها أهلية وطنية كأهليتها . أحيي هنا ما كان عندها من مصرية صادقة واحيي بعدها كل امرأة مصرية ، ولا أحشى ختم هذا الفصل بهتاف واحد : لتحي مصر ! (مي)

المظاهرة والاعتصاب

تمهيد

للعمران الاوربي حسنات شتى تفوّق بها الاوربيون حتى صار لهم ولابنائهم في اميركا السيادة على المسكونة كلها لا يستثنى من ذلك الا بلاد اليابان التي اخذت اخذهم . وتعداد هذه الحسنات يفوق الحصر اهمها تقدم العلوم الطبيعية والميكانيكية وما بني عليها من التفوّق الصحي والزراعي والصناعي والتجاري . وقد اقتبسنا كثيراً منها في هذا القطر فاطباؤنا بارعوا الاطباء الاوربيين في علومهم ومعالجاتهم الدوائية والجراحية . وصيدلياتنا لا تفرق عن الصيدليات الاوربية بما فيها من الادوية والمستحضرات الدوائية . واهل الزراعة شرعوا يستعملون المحاريث البخارية والاسمدة الكيماوية وانشأوا لحلج القطن وعصر الزيت الخام المحالج والمعاصر . وانشئت الورش الصناعية الكثيرة في البلاد تصنع الآلات المعدنية والامتعة الخشبية على اختلاف اشكالها وانواعها . وقد كانت سككنا الحديدية مثل افضل السكك الاوربية في اتقانها وانتظام سيرها وكفاءتها لنقل